

**مقدمة**

**عرض**

**الموضوعات التاريخية**

## 1. بلاد المغرب : المجال و الحدود

تشغل مسألة المجال و الحدود أهتمام المؤرخين لأنها ذات علاقة بتكوين الدولة الحديثة. فالدولة الحديثة خلافاً للدولة التقليدية، لا يمكن تصورها دون إقليم ملتحم واضح المعالم الإجتماعية والإقتصادية و ذي حدود سياسية ثابتة.

كيف يتعامل أبوراس مع مفاهيم الحدود و المجال؟ كيف يتصور آليات التحبيز و هو يعيش في كنف نظام سياسي كان يسعى إلى اكتساب ملامح الدولة الحديثة في تعامله مع المجال و الحدود؟

يتحدث أبوراس في عجائب الأسفار عن المغرب و دولة لكنه ينطلق من مفاهيم تحويل إلى الحقبة التاريخية المتدة من الفتح الإسلامي إلى نهاية العهد الزياني.. الواقع أنه لا يهتم كثيراً بالواقع السياسي - الجغرافي الذي تشكل في سياق النموذج العثماني : تلك السلطة السياسية الجديدة التي برزت في مطلع القرن السادس عشر، فحررت الموانئ من الوجود الإسباني، و خاضت حملات عسكرية لتصفية "الحكم الزياني والحفصي، و عملت على تصفية السلطات المحلية و توسيع في الجنوب و قادت حروبها ضد الأيالة التونسية و سلطة الأشراف السعديين و العلوبيين، كان محورها رسم الحدود الفاصلة بينها.

كأنه لم يساير عمليات الترميز الم GALI و لم ينتبه إلى استراتيجية مراقبة المجال التي بدأت مع مطلع القرن السابع عشر وأمتدت إلى القرن الثامن عشر و بداية القرن التاسع عشر. فمقاييس التحبيز الذي يُعول عليه هو القبيلة و موطنها، أما المقاييس الأخرى (إشعاع السلطة المركزية، آليات التفوز كالبيعة و غيرها) فيهملها و لا يكاد يتحدث عنها.

### 1.1 بلاد المغرب

عند الحديث عن بلاد المغرب، يستند أبوراس على الراحلة القدامي من بطليوس اليوناني إلى الراحلة العرب و على أقوال ابن خلدون و الحاصل "أن المغرب من

<sup>1</sup> تم رسم الحدود الشرقية بموجب إتفاقية سنة 1614 و سنة 1628 و الحدود الغربية بموجب اتفاقية سنة 1699 و تنص على "أن الخط المار من الرأس الأشرف مروراً بوادي سرات إلى وادي ملاقي جنوباً هو الحد الفاصل بين الجزائر و تونس" و "أن الخط المار على مسافة 25 كلم غربي الغزوات مروراً بمدينة وجدة إلى واحة فكيك جنوباً" هو الحد الفاصل بين الجزائر و المغرب الأقصى...

البحر المحيط المسمى بالبحر الأخضر. و أذهب مشرقا إلى سويس و بحر قلزوم (البحر الأحمر حاليا) فتدخل فيه مصر. و في الخفاجي على شرح الشفا للقاضي عياض أن ابتدأه المدينة المنورة إلى وجدة من الجهة الشمالية و البحر الرومي المتفرع من هذا البحر المحيط. و من جهة الجنوب الرمال الحاجزة بين بلاد السودان و البربر<sup>2</sup>

"أما العرف الجاري أنه من طرابلس لأنه الذي كان في القديم ديار البربر ومساكنهم..."

عموماً يتفق مع جمهور الرحالة و ابن خلدون على أن حدود المغرب الكبير برقة شرقاً و المحيط غرباً و البحر المتوسط شمالاً والصحراء جنوباً. أما آيات الترميز: السكان (ديار البربر) و الطبيعة (البحر و الصحراء)، و الآلية الثالثة غير واضحة أهي المذهب الفقهي : المالكية التي إنتشرت في المدينة و المغرب؟

## 2.1 المغرب الأدنى

إن التسمية بذاتها تعود إلى العصور الوسطى فهي لا تعكس الواقع الجغرافي السياسي الذي عاش في ظله أبوراس، أما حدوده فتحيل إلى مجال الدولة الحفصية لا مجال تونس و مجال طرابلس اللتين كانتا قائمتين منذ القرن السادس عشر. أضف أن بجاية و قسنطينة كانتا ضمن الایالة الجزائرية.

فالغرب الأدنى هو "أرض إفريقيا الشاملة قسنطينة إلى بجاية غرباً و طرابلس و برقة شرقاً... برقة معالمها اختفت وأمصارها خربت... كانت سابقاً ديار لواتة و هوارة و غيرهما فأصبحت الآن مجالاً لقبائل بدوية... ومن إفريقيا إلى طرابلس ديار نفوسه و نفزاوة و غيرهما وهي الآن مجالات لعرب بنى سليم وكذلك الجريد.. أما الجبال ففيها بقايا نفزاوة و كتمة و هوارة و عجيسة" و قاعدة المغرب الأدنى "تونس و طرابلس"، يمر به "النهر الأعظم المعروف بواود مجردة يجتمع فيه سائر أودية إفريقيا و يصب في البحر الرومي على مرحلة غربي تونس بموضع يعرف ببنزرت".<sup>3</sup>

<sup>2</sup> نسخة "ج"

<sup>3</sup> عجائب الأسفار - الجزء الثاني

### 3.1. المغرب الأوسط

في نظر أبي راس تكتسي التسمية نفسها دلالتين جغرافيتين مختلفتين : مجال الدولة الزيانية "فأبتدأوه من بجاية إلى وجدة" لماذا وجدة؟ أو ليس نهر الملوية كما تؤكد بعض المصادر؟ يقول "ولما أكثر الملوي اسماعيل ملك المغرب الأقصى من الأجلاب على المغرب الأوسط و شنَّ فيه الغارات و تخطي مرَّة هو بنفسه إلى البطحاء و أناخ بها فزحفت إليه الاتراك فكان بينهم حرب عظيم على نهر جديوبة ثم احتل مصاف أهل المغرب الأقصى فأنهزموا... ثم ذهب أمير حرب الاتراك وراءه فعلموا التخوم بينهم وجدة وما سامتها من الجوف إلى القبلة (واحة فكيك).

و يعني كذلك "لكن حيث أطلق المغرب الأوسط عند أهل التواريخ و غيرهم فالمراد به الايالة التي في حكم أميرنا المنصور بالله أبي الفتوحات محمد باي" : أي بايليك الغرب الذي كان يمتد من خميس مليانة شرقاً إلى وجدة غرباً.

أما سكان المغرب الأوسط "فهم في الغالب زناتة من مغراوة و بنى يفرن و مدionate و مغيلة و كيومة و مطغرة و مطمطة" و كذلك شرقاً "ديار صنهاجة..."

و قاعدة المغرب الأوسط : تلمسان و الجزائر... و يمُرُّ به واد الشلف النهر العظيم منبعه من جبل راشد و يدخل إلى التل<sup>4</sup> من بلاد حصين و يجتمع فيه سائر أودية المغرب الأوسط مثل مينا و غيرها إلى أن يصب في البحر الرومي بين كلميتو و مستغانم.. و يتبع من فوته نهر آخر مشرقاً إلى أن يصب في سبخة بين توzer و نفزاوة من أرض الجزائر<sup>5</sup>.

### 4.1. المغرب الأقصى

"حدوده" : من وجدة إلى أسفى حاضرة البحر المتوسط "يمرُّ فيه" "النهر الكبير المعروف بأم الربيع ينتهي مَدَدُه في البحر المتوسط إلى سبعين ميلاً عند أزمور و منبعه من جبال درن (الأطلس الكبير).. وينبع منها نهر آخر يمر ببلاد درعة (وادي درعة) إلى أن يغوص في الرمال قبلة بلاد السوس.. و ينبع منها نهر كبير ينحدر شرقاً

<sup>4</sup> يسمى في أوله الوادي الطويل... لا يذكر كل الأودية مثل السيبوس و الصومام و غيرهما.

<sup>5</sup> يسمى حالياً وادي جدي.

ذاهبا إلى القبلة و يقطع العرق إلى دبدة.. إلى أن يصب في البحر... أما نهر الملوية  
فمنبعه من جبال قبالة تازى...”

فجبال درن هي ديار المصامدة و بط giova مماليكي عساسة و معهم قليل من صنهاجة و على ضفاف الملوية تسكن أمم من زناتة.. و بين ساحل البحر إلى السوس أرض يعمرها من حادة خلق كثير في حمر الشعر - و أرض السوس الكزولية و لطة مماليكي الرمل و لما تغلب المعقل عليها (أي تافيلالت) من عرب اليمن اقتسموها فالشبانات مماليكي دون لطة..” و قاعدة المغرب الأقصى فاس و قبلته بلاد بودة و تمنطيط.

## 1.5. ما وراء الصحراء

إذا كانت الحدود السياسية في الشمال واضحة و ثابتة لأنها رسمت على إثر حروب تلتها معاهدات، فإن الحدود الجنوبية بقيت خامضة بحكم طبيعة الصحراء. عموما، يعترف أبو راس ”أن قبلة المغرب الأقصى بلاد بودة و تمنطيط..“ أما قبلة المغرب الأوسط تيكوارين.. و قبلة تونس غدامس و قبلة طرابلس فزان و ودان..“

نفهم من مصطلح القبلة التخوم و هي عموما مناطق تختلف جغرافيا و إثنياً و اجتماعيا عن بلدان المغرب.

”ثم إن صنهاجة أهل اللثام المعروفة عندنا بالتوارك مساكنهم بين السودان و الرمال و هي تخوم بلاد البربر متصلون بالبحر المحيط لهذا العهد في المغرب إلى ساحل النيل في الشرق و هم الآن على اختلاف الكلمة و اختلاف السنين على عهدهم الأول.. بعضهم يعطون الطاعة لملك السودان و يغيرون في عساكره، و لهم شرف بأرضهم و تمر عليهم القفو إلى السودان و أحبت شيء عندهم الدخان.. و بيوتهم من الجلد و بازائهم رهط يقال لهم كننته.“

هكذا تنتهي حدود المغرب مع بداية أرض التوارق : قوم من صنهاجة مثلهم مثل قسم هام من البربر غير أنهم يخضعون تارة لملوك السودان وتارة يخرجون عن طاعتهم، يستقلون في مجال فسيح يمتد من نهر السنغال إلى نهر النيل...“

## 2. الصراع بين بني غانية و الموحدين

يؤرخ أبو راس في الجزء الثاني للصراع بين بقايا المرابطين و الدولة الموحدية ، فمحور هذا الصراع السيطرة على المغرب الأوسط (بجاية، الجزائر، القلعة و مليانة). دامت الحروب بينهما خمسين سنة لم يشهد فيها القطر الجزائري سوى الخراب

و الدمار: تخريب المدن مثل تاهرت و غيرها و نهب البوادي و تعطل التجارة و تراجع الزراعة...

تمكن عبد المؤمن من القضاء على المرابطين بالغرب، فانتقل الى الأندلس و استولى عليها. حينئذ فرّ إسحاق بن غانية أحد الولاية المرابطين الى جزر الباليلار فوفدت إليه فلول المتنونيين وأجمعوا على محاربة الموحدين. توفي إسحاق دون أن يحقق أمنيته لكنه ترك أولاً، فتزعم أكبرهم سناً: علي بن غانية الحركة و تراسل مع الحماديين في بجاية فاتفقوا على جمع الكلمة.

عندئذ انتقل علي بجيشه الى بجاية فأخذها و أسر عدداً من الموحدين بها (سنة 580هـ). حاول عامل القلعة استعادتها دون جدوى فأخذ على بن غانية يتسع نحو الغرب، فأستولى على جزائربني مزغنة و أتخذها قاعدة بحرية لربط الصلة بقواعده في جزر الباليلار، ثم أخذ مليانة و مازونة و القلعة.

جهز المنصور الموحدي جيشاً قوامه عشرون ألف مقاتل لمواجهة المرابطين و انطلق من تلمسان، فحرر مليانة و انتقل الأسطول الموحدي من سبتة متوجهاً الى الجزائر، فثار سكانها على المايورقين و ألقوا القبض على عاملها يحيى بن طلحة، ثم كان الهجوم على بجاية براً و بحراً فأنهزم المرابطون و فرّ يحيى بن غانية الى قسطنطينة حيث كان يقيم علي بن غانية.

قصد الجيش الموحدي قسطنطينة فهرب على و يحيى الى الجريد، فلقيهما المنصور بالجامة و هزمهما، فمات عليٌ مثخناً بجراحه سنة 584هـ و بقي يحيى يتquin الفرس. أما بقايا الحماديين فنفأهم المنصور الى مدينة سلا بالغرب الأقصى.

عاد المنصور الى قاعدته مراكش دون أن يقطع دابر الثورة في المغرب الأوسط، إذ بقي يحيى و أخوه عبد الله حاملين راية المرابطين، فلم يلبثا أن بسطا نفوذهما على سائر إفريقيا و الزاب و لم تنفعهما سوي بجاية. حينئذ صمم الخليفة الموحدي الناصر على محاربتهم فغادر مراكش بجيشه سنة 601هـ ووصل تونس، فتراجع المتنونيون الى الجنوب و اتصلوا بالعرب فانضموا إليهم. و وقعت حروب دامية انتهت بمحق قواتبني غانية، و لم ينفعهم سوى التراجع الى الصحراء على عادتهم لتنظيم صفوفهم و تدعيم قوتهم.

رجع الناصر الى مراكش سنة 603هـ و ترك على رأس ولاية إفريقيا أبا الحفص الهمتاتي، فأخذ المرابطون يتأنبون للقتال و تحالفوا مع زناتة و قصدوا سجلماسة

و هاجموها و منها ساروا الى الشمال لتهديد تلمسان: قاعدة الموحدين في المغرب الأوسط. استولى بنو غانية على أرشقول بعد أن هزموا عاملها ثم توجهوا الى تاهرت، فنهبوا سنة 605هـ و عاثوا فسادا في المدن و البوادي فلم تنجد منهم سوى تلمسان التي تحصن أهلها بالأسوار.

تحرك جيش الموحدين، عندئذ، فغادر يحيى بن غانية تاهرت نحو الجنوب، ثم توجه بجيشه نحو شلف فلقيه الموحدون و هزموه شر هزيمة. فمات بها و دفن بالقرب من مليانة سنة 631هـ

يقول ابن خلدون: "فأنقض بهم لكه أمر المتونيين من مسوفة و لم-tone من جميع بلد المغرب و إفريقيا و الأندلس و ذهب ملك صنهاجة من الأرض بذهب ملكه و أنقطع أمره".<sup>6</sup>

### 3. قبائل ذات شوكه و عصبية

#### 1.3. الشعالية في متيبة

تحدث أبوراس عن هذه القبيلة العربية التي تنتهي إلى العقل في الجزء الأول و يواصل الحديث عنها في الجزء الثاني. و ملخصه أن الشعالية كانوا مستضعفين عاجزين عن الترحال فاستقرروا بالتل فتغلبت عليهم متيبة حين كانوا بالتقطير: موطنهم الأول ثم ولاة الجزائر لما انتقلوا إلى متيبة أواخر القرن السابع.

كان رئيس الشعالية سبع بن ثعلب و مرّ به ابن تومرت فاكرمه و أحسن وفادته و أخذ عنه العقائد الأشعرية. فكان سبع إذا وفد على الخلفاء الموحدين، أحسنوا استقباله "ووضعوا على عمامته ديناراً عظيماً"<sup>7</sup> إكراماً له. انتصر الشعالية للموحدين فكلفهم عبد المؤمن بادارة مقاطعتهم.

استمرت الرئاسة فيبني سبع خلال العهد الموحدi ولما ملك أبو الحسن المريني تلمسان ولـى عليهم ابن عابد بن ثابت بن محمد بن سبع و حين توفي بالطاعون سنة 749هـ خلفه ابنه ابراهيم بن نصر فمات أيام أبي عنان المريني فخلفه ابنه سالم.

<sup>6</sup> ابن خلدون، ع، كتاب العبر، ج 6، ص. 179.

<sup>7</sup> مخطوط : عجائب الأسفار .. النسخة بـ

عادت تلمسان الى الزيانى : أبي حمو، فاستقرت المدية و متيجة في يد أبي زيان 767 و 776 لأن سالم بن براهيم حالفه. و حين تغلب أبو حمو، أمن شيخوخ الجزائر فبقاءوا في طاعته واستمرت الجزائر و متيجة في رئاسة الشعالبة.

غير أنهم ثاروا عليه<sup>8</sup> فتقبض أبو حمو على سالم و قتله و تتبع إخوانه و قبيلته بالسيي و القتل حتى اندثروا و ذهبوا شوكتهم فأصبحوا من القبائل الغارمة.

ثم قتل الأتراك منهم لأول استيلائهم على الجزائر مقتلة عظيمة أفتت عددا هاما منهم. و من علمائهم عبد الرحمن الشعالبي : دفين الجزائر و أبو المهدى عيسى عالم القرن الحادى عشر.

### 2.3. توجين: القبيلة الزناتية

أصل توجين من زناتة مثلهم مثل بني زيان و إخوتهم مصاب و بنى زروال و يادين. انتصروا للموحدين. كانت مواطنهم فيما بين المدية شرقا إلى سعيدة غير أن أبي راس يؤكّد "أنها امتدت إلى قصر سعيد في المغرب الأقصى خلال فترة بني غانية". "بدو يبلغون في رحلة الشتاء إقليم ميزاب: جنودهم 3 آلاف فارس و بطونهم بنو تغرين و بنو عزيز و الرئاسة فيهم لبني عطية الذين ناصروا الموحدين ثم الحفصيين.

بمواطنهم جبل ونشريس و السرسو و منداس و وزينة و قلاعهم تاوزغوت و تاقدمت و تافر يقينت و المدية. في أيام الزيانيين، غلبتهم زغبة التي انتقلت من الصحراء إلى التل، فانقضوا إلى جبل ونشريس و نواحيه.

أخذت توجين بالدعوة الحفصية في عهد شيخها عبد القوي و ابنه أبي زيان، فولى هذا الأخير على المدية حسن بن يعقوب و على ونشريس أخاه شريطا و على تاوزغوت سلامة بن علي...

و افترقت توجين في عهد ابنه سيد الناس، فتناقلت بنو عبد القوي و استقلت المدية و السرسو. حاربهم الزيانيون لأنهم كانوا يناصرون الحفصيين تارة و المرinيين تارة أخرى. استولى عثمان بن يغمرasn على أراضيهم و انتقم منهم أبو حمو

<sup>8</sup> لأنهم انتصروا للأمير الحفصي : أبي زكرياء حاكم بجاية آنذاك

و أحضעם فابتني "حصن موسى" سنة 711 هـ (عمي موسى حاليا) لمرأبة تحركاتهم. في عهده ملك العرب السرسو وأزاحو توجين منه.

لم تتمكن توجين من استعادة قوتها بسبب تفرق كلمة رؤسائها، فأصبحت من القبائل الغارمة. و لتوجين علماء وأولياء في الماضي والحاضر، وقد امتلأت الراشدية بصلحائهم وكثرة علمائهم و منهم أبو عيسى التيجاني صاحب العقد النفيسي.

### 3.3. بنو يفرن وأمارتهم

بنو يفرن: أمة قديمة من البربر، اختطت مدينة تلمسان وأسست إمارة بها إلى أن فتحها عقبة بن نافع. أسلمت و مالت إلى الطاعة متى كانت السلطة القائمة بالقيروان عادلة، لكنها رفضت جور بعض الولاة و تعسفهم، فاعتنقت المذهب الصفرى و بايعت رجالا شجاعا: أبا قرة اليفريني. وقد جمع هذا الأخير الصفرية في المغربين الأوسط والأقصى ونظم صفوفها ونظم أقادير (تلمسان القديمة) قاعدة له، فألف جيشا حارب به ولاة العباسيين حتى بلغ إقليم الزاب.

و حين تولى عمر بن حفص ولاية القيروان سنة 150هـ، أمر جيشه بالتوجه إلى طبنة، فاتخذها قاعدة لغاراته على الخوارج في المغربين الأوسط والأقصى.. فأحتشدت جموع البربر الساخطين على العباسيين من كل جهة فقدم أبو قرة في أربعين ألف مقاتل و عبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألفا و غيرهما من قادة البربر.

و لم يكن عمر بن حفص من الجيش سوى خمسة عشر ألفا و نصف فهاله ما رأى من حشود البربر، فعدل عن مواجهة العدو و اعتمد سياسة الاغراء و كسب بعض قادة البربر لأن القحط كان قد عم في المغرب و كثرت المجاعات و عانى الناس من الفقر و البؤس. انصرف جل جند أبي قرة عنه، فآخر الانسحاب و انتظار الفرصة السانحة.

و حين علم بخروج عمر بن حفص من طبنة، حاصرها و اشتباك مع حاميتها لكنه فشل في إفتاكها، لهذا قرر العودة إلى أقادير. و تجمعت حشود البربر مرة أخرى فحاصرت القيروان و كان أبو قرة حاضرا بجيشه، مات عمر بن حفص أثناء الحصار فخلفه "ابن قبيصية" الذي تمكن من فك الحصار و تشتيت حشود الخوارج، حينئذ تراجع أبو قرة نحو أقادير. بتجربة أبي قرة بدأت شوكةبني يفرن تتقهقر في

تلمسان و آلت سمعتهم الى الزوال بالغرب الأقصى و الأوسط. و حين استقام الامر لإدريس الاول في المغرب الأقصى، خرج سنة 173هـ لغزوبني يفرن في أقadir و محاربة الخوارج الصفرية.

لم تقع الحرب بين الطرفين لأن غالبيةبني يفرن بايعت إدريس الأول لشرفه كما يؤكده أبوراس. عندئذ تولى سليمان بن عبد الله ولاية تلمسان من أخيه و لما مات سليمان خلفه ابنه محمد. غير أن الطائفة الصفرية ثارت عليه و لم يتمكن من إخماد نار ثورتهم فقام إدريس الثاني لإنقاذه فاستولى على تلمسان و ظل بها ثلاث سنوات طهر خلالها المغرب الأوسط من العقائد الخارجية.

في مطلع القرن الرابع الهجري، ظهر الفاطميون، ففضوا على الأغالبة بافريقيا و على الرستميين بتاهرت و بنى مدرار بسجلمة و بلغ نفوذهم نواحي سبتة بالغرب الأقصى، فأخذوا يهددون دولة الأمويين بالأندلس. أعد الخليفة عبد الرحمن الناصر العدة لإحباط مساعي الشيعة ودفع خطرهم و اتصل بزناتة، فلباه محمد بن خزر المغراوي الذي ملك تنس و هرمان و طارد الشيعة في إقليم الزاب، و بث دعوة الأمويين سنة 333هـ في أعمال المغرب الأوسط. كان الفاطميون منشغلين وقتئذ بإخماد ثورة أبي يزيد الخارجي و لما صفا لهم الجو، ولوا وجوههم نحو الغرب، فخرج المنصور بنفسه سنة 336هـ و زحف على تاهرت فأبعد عاملها و عقد عليها ليعلى بن محمد اليفريني.

و في سنة 314هـ، انتشرت دعوة الأمويين من جديد بالمغرب الأوسط، فعقد الناصر الأموي ليعلى بن محمد اليفريني على المغرب و أعماله، فراجع محمد بن خزر المغراوي طاعة الشيعة بسبب تربع قريعه يعلى بن محمد. فتجهز جوهر الصقلي قائد المعز الفاطمي و خرج لقتال دعاة الأمويين سنة 347هـ فاعترضه الأمير اليفريني بجيوش كثيفة على مقربة من تاهرت فكانت مقتلة شديدة من الطرفين لكن جوهر الصقلي مال الى المكيدة فاغتال يعلى و اختفى ولده يدو (أو يد حسب أبي راس) فأخفقت بنو يفرن إخفاقا ذريعا. وأنشرت الشيعة بالمغرب الأوسط. و في سنة 326هـ، حمل بلقين بن زيري على زناتة و نقل رؤساهـا و حشودا منبني يفرن إلى عاصمتها أشير. و لم يبق بایفكان و تلمسان إلا المستضعفين. فـ يدو إلى سبتة يستنجد الأمويين ثم عاد إلى الظهور و أراد استعادة إمارة تلمسان و حدثت بينه و بين زيري بن عطيـة المغراوي الذي أراد أن ينفرد بالمغرب الأوسط، حروب طوال إنتهت بفشل

يدو اليفريني فاختفى في الصحراء حيث مات سنة 338هـ فخلا الجو لغراوة في المغرب.

و في مطلع القرن الخامس الهجري، أعاد بنو يفرن ملكهم على تلمسان وأعمالها إلى أن دخل بنو هلال المغرب فاستعلن الحماديون برغبة الإثباج في محاربةبني يفرن، فكانت بينهم وقائع بربز فيها الأمير بختى من ولد يعلى اليفريني. فاستمرت إمارةبني يفرن بين مد و جزر إلى أن استولى يوسف بن تاشفين على المغرب الأوسط فإنهى إمارة مغراوة بوهران وإمارةبني يفرن بتلمسان.

كانت مواطنبني يفرن بجوار إخوتهم مغراوة : "فانتشروا في العمار و أكلتهم البوادي و القفار.." أي من تلمسان و أعمالها إلى غرب و نواحيها. هم الذين أسسوا أفادير (تلمسان القديمة) و إيفكان : قاعدة يعلى بن محمد اليفريني.. غير أن الحروب و عواقبها أفضت إلى تشتت شملهم.. ففي الغرب الجزائري، حلت قبائلبني راشد التي كانت تقطن جبل العمور محلهم في غرب و في أعمال تلمسان بقيت منهم "الآن جماعة قليلة متفرقة في القبائل لا يكادون يعرفون بحيث لم يبق لهم تنزعج ولا عاقلة تعمل و لا عصابة لصريخ - سنة الله في عباده.." <sup>9</sup> كما توجد "نبذة منهم بشلف ومازونة".

أما غالبية بطونهم فانتقلت إلى عمالة قسنطينة حول سطيف و في إقليم الزاب : مثل بسكرة و ورقلة، و خاصة إلى شمال المغرب الأقصى" منهم غياثة حدو تازي و أهل تادلا..

كانت بنو يفرن قبيلة عظيمة ذات شوكة و ملك "فاذاقهم ملوك الزمان ( خاصة صنهاجة) وبالقهر و خطة الخسف و الذل.."

#### 4.3. مغراة و إمارة مازونة

إن جل حديث أبي راس عن مغراوة يوجد في الجزء الأول، أما الجزء الثاني فيتناول الحديث عن إمارة مازونة التي امتد نفوذها شمال جبال ونشريس ووادي شلف إلى البحر، و ينتهي شرقا إلى وادي السبت قرب متيبة و غربا إلى البطحاء.

<sup>9</sup> مخطوط : عجائب الأسفار.. النسخة ج.

و تشتمل على جبال شاهقة و سهول خصبة ومدن عامرة منها مليانة واجر و مازونة (قاعدة الملك) و برشك و شرشال.

غابت على ونشريس و المدية أيام مؤسساها منديل بن عبد الرحمن واختطف قصبة سيرات، ثم ظهرت توجين بونشريس و مليكش و التعالبة بمتيبة فانقضت إلى مجالها الأصلي.

كانت مغراوة على الدعوة الموحدية، حتى وطئ أرضها أبو زكرياء الحفصي سنة 632 هـ فبأيته و خالفت سياسة عبد الواد، فنهض إليها يغمراسن، فعجزت عن مقاومته و استنقذت الحفصيين و سهلت لهم أمر الإستيلاء على تلمسان سنة 640 هـ. فعقد أبو زكرياء الحفصي لأميرها العباس إدارة إمارته و منحه الإستقلال الداخلي "أمره أن يأخذ زى الملوك من بنود و بطون و نجائب و غير ذلك"<sup>10</sup> غير أن يغمراسن أجلب عليها حتى استقامت على ولائه. لكنها استصرخت الحفصيين مرة ثانية فلم يلبوا فتوجهت للمرinيين فلم تفعها هذه السياسة. فجاء الأمير الزياني عثمان بن يغمراسن فاثخن في مغراوة و استولى على عاصمتها : مازونة سنة 686 هـ و على تنس سنة 688 هـ

و أuan ثابت بن منديل المرinيين على إحتلال تلمسان سنة 689 هـ فانتقم منه عثمان الزياني ففر ثابت إلى فاس حيث توفي. و ملك ابنه محمد بن ثابت مازونة سنة 700 هـ و قاوم تارة الزيانيين و تارة المرinيين إلى أن التحق بالحفصيين سنة 708 هـ. تحالفت مغراوة مع عبد الواد في عهد أميرها على بن راشد (749-772 هـ) فأخرجت عمالبني مرin من مدنها غير أن أميرها تقاعس على مناصرتهم فنهض إليه أبو ثابت الزياني و هزمهم بوادي رهيو فلجم إلى تنس وانتحر. و حين أعاد المرinيون احتلال تلمسان، وَلوا حليفهم المغراوي على بن هارون بن ثابت إدارة الإمارة المغراوية فكان عدوا لعبد الواد فبادر أبو حمو موسى الزياني لحربه حتى أجلاه لجبال صنهاجة ثم لحق بفاس. فنامت مغراوة نومها الأخير سنة 776 هـ.

تعتبر مغراوة من أعظم قبائل زناتة و قد انتشرت بطنونها في كامل تراب المغرب من أعمال طرابلس شرقا إلى أعمال فاس غربا و من سجلماسة و الزاب و الجريد جنوبا إلى البحر المتوسط شمالا، غير أن موطنها الأصلي هو إقليم وادي الشلف،

<sup>10</sup> مخطوط : عجائب الأسفار.. النسخة ب.

يقول أبوراس "كانت أكثر قبائل المغرب عدداً وأقوى ملكاً و جنداً وأعز نفراً وأرفع شأناً.. قوى تصرفها في أراضي المغرب من طرابلس إلى المغرب الأقصى".

قبل الإسلام، كانت تستوطن طرابلس ثم تصرفت في الإقليم الغربي من إفريقيا. و تفرقت إلى عدة بطون منها بنو خزرون ملوكاً طرابلس و بنو صقلاب ملوكاً بطائحة إفريقيا و سنجاس بالزار و جبل راشد و بنو ورسيفان بمليانة و نواحيها. و منهم بنو منديل ملوكاً مازونة و تنس و بنو خزر أصحاب المغرب الأوسط و بنو بختي ملوكاً تلمسان و ضواحيها<sup>11</sup> و منهم بنو عطية ملوكاً فاس و أحوازها. و في منتصف الرابع الهجري، ظهر خزرون بن فلفول بسجل ماسة فازاح منهابني مدرار و حكمها بنوه إلى أن قضى عليهم المرابطون سنة 455هـ.

أسست مغراوة عدة إمارات كانت لها حروب و وقائع مع الزيريين و الحماديين و المرابطين. و منها بالغرب الأقصى إماراة فاس و إماراة سجل ماسة و إماراة أغمات و بالمغرب الأوسط إماراة وادي الشلف و إماراة وهران و إماراة تلمسان و إماراة إقليم الزار و إماراة مازونة و بليبيا إماراة طرابلس. أفضت هذه الحروب إلى زوال ملوكها و إلى إنقاضها في مواطنها الأصلية : وادي شلف غير أن فلولها كانت منتشرة في الزار (سنجاس، و ريغة و الأغواط) و الشمال القسنطيني بين بجاية و عنابة و كذلك بوادي ملوية بالغرب الأقصى..

كانت مغراوة قبل الإسلام تدين بالمجوسية حسب رأي أبي راس، غير أن ابن خلدون يقول إن الرومان أجبروهم على اعتناق المسيحية. و عند الفتح، قاومت مغراوة الفاتحين العرب لكنها أنهزمت على أيديهم، فأسلم قادتها و نزمار بن صقلاب حين وفد على الخليفة عثمان بن عفان فاكرمه هذا الأخير و عقد له على قومه و وطنه. فأسلم قومه عند رجوعه من المدينة المنورة.

استقرت العقائد السننية في أغلب بطون مغراوة و فرقها إلا أن قلة منها في إقليم الزار كانت على المذهب الإباضي حسب المصادر الإباضية.

<sup>11</sup> بنو بختي : تارة يلحقهم أبوراس ببني يفرن و تارة بمغراوة و الأصل حسب المصادر العربية أنهم ينتمون إلى مغراوة.

### 5.3. سويد وبنو عامر

يتناولهما بالدراسة في الجزئين. تنتمي إلى زغبة بن ربعة بن نهيك بن هلال. كانت مواطنهم الأولى بجبل غزوان عند الطائف وأخوتهم بنو سعد..

فبني عامر "هؤلاء الذين بالغرب بطون ثلاثة"، "بني يعقوب استقروا بأرض اليعقوبية جنوب معسکر و بنو حميد منهم الحجز و جحوش و المحاجزة و بنو شافع" كانوا جند النصارى بوهران.

أما سويد فهم بنو سويد بن عامر بن مالك بن زغبة و منهم العطاف أرضهم غرب مليانة و الديالم أرضهم جنوب ونشريس، و فليتة (سهل مينا) و مجاهر (سهل مستغانم) و الحساسنة و مالفة (ضواحي عين تموشنت) وأولاد مقدار ومخيص (ضواحي وهران) و هبرة (سهل المحمدية) وصبيح (جبل دراك) و عريب (نواحي شلف).

ثم طلحة و الأحلاف. فطلحة من عرب العقل من بطونهم ذوي عبد الله و ذوي منصور و ذوي حسان : مواطنهم غربي تلمسان إلى الملوية (أرض أنقاد) كانت لهم الجباية على وجدة و ندرومة و مدionate وبني زناسن في عهد الزيانين. أما حميان منبني يزيد بن عيسى بن زغبة كانت لهم الأتاوة قبل الزيانين على أرض حمرة (بويرة الحالية) و الدهوس (بجوار بجاية).

نقل يغمراسن بنى عامر من الصحراء إلى جنوب تلمسان إزاء العقل الذين كثروا عليهم. و تبعت حميان بنى عامر و صارت في عدادهم. وكانت الحروب بين الزيانين والمرنيين فخافت زغبة خمارها توسلًا إلى دخول التل. ولما تمكن الضعف منبني زيان أيام أبي حمو الثاني، تغلبت بنو عامر على القلال فنزلت سهول بلعباس واتصلت مجالاتها بجبل هيدور فكانت حصّة حميان أرض الحفرة و ماوالاها (أو حفرة الأندلسيات)<sup>12</sup> و من حميان الذين انتقلوا إلى وهران المحاميد و بنو كرز و بنى موسى و الم الرابعة و الخشنة...

<sup>12</sup> الحفرة : وادي الأندلسيات : طوله 14 كلم وعرضه 4 كلم : يمتد بين رأس فالكون إلى جبل المرجاجو.

كان سويد موالين لعبد الواد قبل تملكتهم لتلمسان ورئاستهم في أولاد عيسى بن عبد القوي، ثم كان الخلاف بينهم وبين يغمراسن فنزلوا خلف مواطن توجين و حالفوهم على حرب الزيانيين.

أما بنو عامر فرئاستهم فيبني يعقوب ويرادفهم بنو حميد. أبعد السلطان عثمان بن يغمراسنبني يعقوب وأستمال بنو حميد فاستشاط بنو يعقوب فوصلوا أيديهم ببني مرين وحالفوا سويد. عظم شأنبني حميد لكنهم لم يسلموا من الخلاف مع عبد الواد، فتحالفوا تارة مع المرينيين وتارة معبني حفص.

خلال العهد العثماني، تحالفت سويد - وكانت تسمى بالأ محل مع الإسبان في عهد رئيسهما حميد العبد، فأباد الاتراك عددا هاما منهم كانوا نزلوا في الماح و سيق و مستغانم و تننس و إقليم شلف. فلم يبق منهم سوى "مجاهر" بناحية مستغانم و فليطة بناحية مينا. وكذلك كان حالبني عامر التي آزرت الإسبان فقد أنقضت مجالتها وانحصرت مواطنها باقليم ملاتة وحلت محلها قبائل المخزن (دواير وزمالة) فملكـت ملاتة و ساحل وهران ونزلت "غرابة" باقليم سيق.

### 6.3. القبائل الأخرى : مغيلة و مدرونة و منداس

كانت مغيلة أمة بربرية من أبناء مادغس و إخوتهم لامية و مدرونة و سماتة و ولهاصة...من أمرائها العظام أبو الحاتم كان على مذهب الخوارج، هزم عامل الخليفة العباسـي أبا جعفر المنصور فأستولـى على طرابلس و حكم مدة أربعين سنة و منها أبو الحسن الثائر أول الإسلام، و أبو قرّة الشهـير. انتقلت غالبيـتهم إلى المغرب الأقصـى فنـاصـروا المولـي إدريسـيـ الحـسـنـيـ واستـقـرـواـ بيـنـ فـاسـ وـ صـفـرـوـ ثـمـ نـاصـرـواـ عـبدـ الرـحـمـانـ الدـاخـلـ وـأـجـازـوـ إـلـىـ الـأـنـدـلـسـ فـانـتـقـلـ عـدـدـ مـنـهـمـ إـلـيـهـاـ،ـ وـ بـقـيـ مـنـهـمـ بـالـمـغـرـبـ الأـوـسـطـ،ـ جـيـلـ بـنـاحـيـةـ وـارـيـزانـ قـرـبـ مـازـونـةـ.

كانت مغيلة دار علم و ملك و ولاية من علمائـهاـ ابنـ عبدـ الكـرـيمـ الشـهـيرـ وـ المـازـونـيـ صـاحـبـ الدرـرـ..

أما مدرونة، فكانت ديارـهاـ بـجـوارـ تـلـمـسانـ،ـ كـانـتـ فـيـ الـجـاهـلـيـةـ عـلـىـ الـديـانـةـ اليـهـودـيـةـ.ـ وـ فـيـ الـإـسـلـامـ،ـ أـجـازـ كـثـيرـ مـنـهـاـ إـلـىـ الـأـنـدـلـسـ وـ بـقـيـ بـالـمـغـرـبـ الأـوـسـطـ أـوـزـاعـ منـدـجـمـةـ فـيـ الـقـبـائـلـ..ـ وـمـنـدـاسـ نـسـبـةـ إـلـىـ جـدـهـمـ،ـ جـلـهـمـ بـجـوارـ جـبـلـ وـنـسـرـيـشـ.

#### 4. مدن و قواعد

يؤرخ أبوراس في الجزء الثاني خاصةً، لعدد من المدن التونسية والجزائرية، نفهم أنه يكتب عن مدن تونسية مثل سوسة وتونس والمهدية.. لأنه صاغ كتابه في شكل رحلة وقد كان بتونس حين سمع خبر حصار وهران ونفهم أنه يتحدث عن تلمسان والجزائر وتنس ودلس في معرض التاريخ للجزائر لكن ما نستغربه أنه أعرض عن تناول وقائع معسكر وهي عاصمة البايليك ومقر سكانه.

أيُعود ذلك لغياب المصادر لديه؟ أم لسبب آخر. نذهب إلى أن المضائق التي كان يشكوا منها دفعته إلى ذلك الإحجام. ينحدر أبوراس من وسط ريفي ولم يتمكن رغم مكانته العلمية من الإندماج في الارستقراطية الحضرية التي كانت تستخف بأهل الريف. يقول في هذا الصدد، وهو يشعر بهذا التمييز "الناس من داء عضال.. سهامهم مسمومة .. لا يملون من الإن نقاد و الخلاف، يسقون من أفواههم العسل و في قلوبهم السم.." <sup>13</sup>.

#### 1.4. الجزائر المحرّسة

نهتم بالمدن الجزائرية و نترك المدن التونسية لعدم إتصالها بتاريخ المغرب الأوسط.. و نبدأ بمدينة الجزائر. أسسها بلکين في أيام أبيه زيري بن مناد. و سميت بجزائربني مزغنة نسبة لقبيلة صنهاجية كانت تقطن بجوارها ولوجود جزر صغيرة على مسافة من الموقع الذي بنيت فيه. بلغت في القرن الخامس الهجري نوعاً من الإزدهار إذ يقول عنها البكري" مرسى مأمون يقصده أهل السفن من إفريقيا و الأندلس و غيرهما".

كانت فيما بعد جزءاً من مملكةبني حماد ثم استولى عليها المرابطون و دانت من بعدهم للموحدين. و لما حاول بنو غانية استعادة ملك أجدادهم، استولى على<sup>13</sup> بن غانية عليها لكنه لم يحتفظ بها طويلاً فقد ثار سكانها في وجهه و أعلنوا ولائهم للمنصور المودي. إلا أن يحيى بن غانية استطاع أن يحتلها سنة 623هـ. وخضعت لنفوذ الحفصيين سنة 632هـ لكن أهلها أبعدوا العامل الحفصي منها سنة 664هـ و أقاموا إمارة مستقلة بها عاشت إلى 672هـ قضى عليها أمير بجاية الحفصي.

<sup>13</sup> عجائب الأسفار: الجزء الثاني.

حضرت للحفصيين ثم خرجت عن طاعتهم إلى أن افتكها السلطان الزياني أبو حمو موسى سنة 712 هـ. وحضرت للمرنيين ماراً أثناء حروبهم مع الزيانيين واستولى عليها أبو حمو الأصغر مرتين لكنه لم ينجح في الحفاظ عليها.

حينئذ، استفاد العالبة من الإضطرابات التي حلّت بها فأخذوها وضموها لسلطنه، غير أن أمير العالبة سالم بن إبراهيم كان يعلن الولاء تارة للمرنيين وتارة للزيانيين، فقتل أبو حمو الأصغر وألحق الجزائر بملكه. وتجددت الإضطرابات بين الأمراء الزيانيين فأخذها أبوزيان محمد من أخيه أبي حمو الأصغر واتخذها قاعدة لدولته التي امتدت إلى متيبة والمدية و مليانة و تنس، غير أن أهلها تمكنا من اغتياله لسوء معاملته لهم. فظلت منذ ذلك الوقت إلى وصول الأتراك في حماية العالبة..

كان لميناء الجزائر شأن إذ كانت السفن الإيطالية ترسو به للتجارة. وشتهرت المدينة بمساجدها أهمها المسجد الكبير الذي بناه المرابطون وأضاف إليه الزيانيون منارة جميلة. و من علمائها الولي الصالح سيدى عبد الرحمن الذي اشتهر بتفسيره "الجواهر الحسان".

تعرضت السواحل الجزائرية إلى الهجوم الإسباني في مطلع القرن العاشر الهجري، فحضرت الجزائر لتبعة الملك الإسباني الذي أمر ببناء "قلعة الصخرة" لراقبتها. فضاقت سبل العيش بأهلها فحاولوا التخلص من الحماية الإسبانية واتصلوا بالأخوة بربuros و عرضوا عليهم أمر قيادتهم "لعدم إستقامة دولة أهل تلمسان". دخلها خير الدين سنة 915 هـ (1516 م) و استقبله أهلها استقبال الأبطال. وحين أراد توطيد نفوذه بها، تأمر أعيانها عليه فنكل بهم. و عبثا حاول الإسبان انتزاعها منه ففشلت الحملتان الإسبانيتان عامي 1516 و 1519.

و حين قضى خير الدين على خصمه في الداخل "شمر للمدافة عن الجزائر بـ و بـ حـ" ، فحاصر القلعة الإسبانية إلى أن استولى عليها ثم هدمها وأخذ أنقاضها لبناء ميناء الجزائر الجديد (سنة 948 هـ) كما جدد تحصيناتها فأصبحت أمنع من عقاب الجو لا تخشى هجمات الدول المسيحية.

و في سنة 1541 م كانت الحملة العظيمة التي قادها الملك الإسباني شارل الخامس بنفسه على الجزائر يسعى إلى إنهاء الوجود العثماني بالغرب. "قدم إليها الطاغية في زھاء سبعمائة سفينة"<sup>14</sup>. و نزل بجيشه عند مصب نهر الحراش، و لقيه حسن أغا بجيشه فهزمه في وقت "بعث الله ريحًا عاصفة كسرت أكثر مراكبه". فانسحب الإسبان يجرّون أذيال الهزيمة و غنم حسن آغا غنائم كثيرة.

و لم تفلح الحملتان الانكليزيتان (عامي 1622 و 1655) في إخضاع المدينة "فرموها بالبوبنة و لم يفدو شيئاً". و ضربت و حدات الأسطول الفرنسي الجزائر بغير طائل سنتي 1661 و 1655 م "فهموا أكثر دورها و بعض مساجدها" و عاد الإنكليز مرتين سنتي 1682-1683 فدكوا المدينة بمدافعهم. "فالحهم حسن باشا بلا مشورة أحد من أهل دولته" فقتله قادة الجيش و نقضوا صلحه فعاد الأسطول "يهدد المدينة سنة 1073 هـ، فهم نحو 300 دار" دون أن يخضعها.

و حاولت القوات الإسبانية سنة 1775 م أن تستولي على المدينة، فكانت الحملة التي قادها "أورللي" فنزلت إلى البر "جعلوا أتراسا من الخشب" لكن الجيش العثماني حاصرها و قتل عددا هاما من جنودها "ورجعوا خائبين... حتى حضر هذه الواقعة المنصور بالله سيد محمد بن عثمان.. ظهر من إقامته و اعتنائه مقامات تعد من مفاخر دولته"<sup>15</sup> و لم تتوّض الحملة الإسبانية التي قادها "برسيلو" سنة 1783 (1197 هـ) خسائرهم "فعادوا خائبين بعد أن هدموا أزيد من 200 دار".

لم يتعرض أبوراس إلى الحملة الإنكليزية التي قادها الأميرال اللورد اكسسوموث سنة 1815 رغم أهميتها. عموما يتضح من هذه الحملات المتكررة أن الجزائر كانت بالقوة التي تمكّنها من التصدى للأساطيل الأوروبية مهما كانت قوتها. إنها الجزائر المحروسة".

## 2.4. تلمسان : مدينة الجدار؟

يعتقد أبوراس أنها مدينة قديمة أسسها بنو يفرن لكنه لا يذكر تاريخ بنائها و لا من بناتها. في لغة زناتة تعنى "تل سان" تجمع القل و الصحراء. و يعني إسمها القديم "أقادير" في نفس الوقت: "جدار قديم و مدينة محصنة" أي مدينة الجدار.

<sup>14</sup> عجائب الأسفار : الجزء الأول.

<sup>15</sup> الجمل بين علامتي التنصيص من عجائب الأسفار - الجزء الأول.

يذكر أنها كانت ملتقى موسى بالخضر عليهما السلام وفق القصة التي رواها القرآن الكريم في سورة الكهف، لكن ابن خلدون ينفي ذلك لأن مملكةبني إسرائيل كانت بالشرق ولم تمتد إلى المغرب.

يرتبط إسم تلمسان في المصادر العربية أولاً بحركة الفتح العربي. بجوارها وقعت المعركة التي واجه فيها الجيش العربي بقيادة أبي المهاجر دينار حشود أوربة بقيادة القائد البريري كسيلة. انتصر الفاتحون وأسرعوا كسيلة غير أن القائد العربي أحسن معاملته فأسلم هذا الأخير و قومه. ولا تولى يزيد بن معاوية الخلافة، عزل أبا المهاجر وردّ عقبة بن نافع إلى ولاية إفريقية والمغرب. خرج هذا الأخير بجيشه إلى المغرب فاحتل باغایة و نزل تلمسان، فلقيته حشود البربر و الروم فانتصر عليهم ثم سار حتى نزل طنجة ثم عرج إلى السوس بالجنوب و أقفل راجعاً إلى قاعده القิروان. فلما وصل طبنة وصلته أنباء مقلقة عن إفريقية، فأرسل معظم جيشه إلى القิروان وأبقى نحو 300 فارس عرج بهم إلى تهوزة في أحواز الزاب.

كان عقبة بن نافع قد استصحب كسيلة في حملته و كان يهينه، فأمره - مرة بسلخ شاة بين يديه، فأضمر كسيلة الغدر و عزم على الفرار من معسكر العرب، فانسحب هو و قومه و كون جيشاً و تحالف مع الروم لمقاتلة العرب، فترصد لعقبة و قصده في جيش عظيم فدارت الحرب بينهما وانتهت بمقتل السرية العربية سنة 64 هـ. كان أبو المهاجر قد نهى عقبة عن إهانة رؤساء البربر لكنه لم يسمع. شجع مقتل عقبة كسيلة الذي زحف على القิروان فانقلب إفريقية ناراً و عظم البلاء على المسلمين.

كانت تلمسان خلال القرن الثاني الهجري قاعدة إمارة الخوارج الصفرية بقيادة أبي قرة اليفريني، إلا أن إدريس الأول انتقل من وليلي لغزو أقادير سنة 173 هـ و محاربةبني يفرن. لكن سكانها بايعوه لشرف نفسه، فمكث بها سبعة أشهر و بنى بها مسجداً : (المسجد الأعظم و منبره).

توفي إدريس الأول، فلحق أخوه سليمان بأقادير و طلب الأمر لنفسه، فأذعن له زناته. و في عهد ابنه محمد زحف إدريس الثاني على أقادير لاخمام نار الثورة الصفرية بها. فظهر تلمسان و مجاورها من العقائد الخارجية واستقر بها الإسلام على مذهب أهل السنة.

و أنشأ يوسف بن تاشفين "تاقرارت" في العقود الأخيرة من الخامس الهجري بجوار المدينة القديمة "القرية المسكونة الآن بمكان محلته". و استعمل عليها محمد

بن تينعمر. و بعد ذلك غزاها المنصور بن الناصر بن علناس الأمير الحمادي ، فصالحه يوسف. إلا أن المرابطين أعادوا غزوهم للجزائر بقيادة عاملهم محمد بن تينعمر فردهم عنها عبد الله بن المنصور الحمادي و كانت الواقع شديدة فحاصر المرابطون المدينة يومين لكنها لم تسقط بأديهم فهلك محمد بن تينعمر و حل محله أخوه تاشفين، فغزا أشيه و افتتحها و خربها و كان لبني "ومانو" و بنى يلومي "أثر في مظاهرته و إمداده مع أنهم كانوا من جهةبني حماد، فأحقد عليهم المنصور الحمادي و غزاهم ثم نهض إلى تلمسان فلقيه جيش المرابطين بتسالة فانهزم المرابطون و دخل المنصور تلمسان و عاثت عساكره بها و عظمت المحنـة على أهلها فخرجـت "حواء" زوجة تاشفين بن تينعمر "متولـة إلـيـه بـوشـائـج الصـنـهـاجـية فـأـكـرـمـ مـتوـاهـا وـ أـفـرجـ عـنـهـمـ فيـ يـوـمـهـ وـ بـقـيـتـ أـقـادـيرـ بـيدـ لـتـونـةـ إـلـىـ أـنـ أـخـذـهـ مـنـهـ عـبـدـ الـمـؤـمـنـ سـنـةـ تـسـعـ وـ ثـلـاثـيـنـ وـ خـمـسـيـةـ".<sup>16</sup>

كانت تلمسان في عهد المرابطين مركزا للدراسات الفقهية و الكلامية و اشتهر فيها نفر من العلماء البارزين منهم أحمد بن نصر الداودي الذي قدم إلى أقادير و أقام بها حتى مات سنة 402 هـ. أَلْفَ "النصيحة" في شرح صحيح البخاري و "كتاب النامي" في شرح موطاً مالك و "كتاب الوعي" في الفقه و "الايضاح" في الرد على القدرية و المعتزلة.

بقيت تلمسان تحت نفوذ المرابطين 75 سنة، و حين استولى عبد المؤمن الموحدى على وهران ، بادرت جماعة من أعيان تلمسان إلى لقائه يتلمسون منه الآمان فلقيهم أحد قادته في وادي تافنة و قتلهم عن آخرهم. فطار الخبر إلى المدينة و سرى في سكانها الخوف وساعـتـ بـهـاـ الفـوضـىـ، وـ بـعـدـ حـصـارـهـ، دـخـلـ عـبـدـ الـمـؤـمـنـ تـلـمـسـانـ وـ عـاثـ عـسـاـكـرـهـ فيـ أـنـحـائـهـ يـقـتـلـونـ وـ يـنـهـبـونـ..

و تعاقب على إداراتها عمال ساهموا في إعادة بنائها و تشبييد أسوارها و إرجاع الرخاء لها. في عهد الموحدين انتشر التصوف بالغرب فكان من مشاهيره "أبو مدین" دفين العباد..

<sup>16</sup> وردت هذه الرواية في النسخة ج وحدها.

**خلال النصف الأول من القرن السابع ضعفت دولة الموحدين فتعرضت لضربات القبائل الزناتية البدوية : بنى عبد الواد و بنى مرین في حين انفصلت إفريقية بقيادة الحفصيين.**

أسس بنو زيان دولتهم على أراضي المغرب الأوسط اتخذوا تلمسان عاصمة لهم. غير أن الدولة الزيانية تعرضت خلال القرنين السابع والثامن الهجريين لغزوات مستمرة شنها الحفصيون بتونس والمربيون بفاس و كان النصر حليف الغزا في غالب الأحيان. و مع ذلك و جد أمراء تلمسان و قتا يزيتون فيه عاصمتهم بمختلف المبني وانصرفوا إلى تشجيع العلوم ففتحوا المدارس للطلبة منها مدرسة العباد التي درس فيها ابن خلدون و المدرسة التي بناها أبو حمو و أشرف على التدريس بها الإمام و إبناه.

كان لتلمسان الزيانية شأن هام في علاقاتها التجارية بالصحراء و السودان من ناحية و بالأندلس و المشرق من ناحية، فكان ميناؤها حنين يستقطب مبادلاتها مع المدن الأندلسية و الإيطالية .. و لم تكن مركزاً تجارياً و سوقاً ل المنتجات الإقليم بل إنها تنتج منتجات صناعية مطلوبة في المشرق والمغرب.

و في القرن العاشر، استقادات المدينة و أحوازها من هجرة الأندلسية، فكانوا سبباً في ترقية إقتصادها و إرشاد سياستها ونهضة علومها و فنونها.

استقر نفوذ الاخوة "بربروس" بالجزائر العاصمة فدانت لهم البليدة و مليانة و المدينة بالطاعة. فقرر "عروج" إنقاد تنس من يدي أميرها الزيري "الثابشي" المتحالف مع الإسبان، فدخلها في جانفي 1517 و جاءه وفد من أعيان تلمسان يشكوا له اضطراب الأحوال السياسية في مدinetهم بسبب تنازع الأمراء الزيانين. فلبّي الدعوة وتوجه إلى تلمسان فلقه جيش أبي حمو الثالث فهزمه و دخل تلمسان وأعاد أميرها الشرعي أبي زيان إلى عرشه. وكان هذا الأخير قد اعترف بتبعتيه للسلطة الجديدة. غير أن أفراد الأسرة الزيانية، استغلوا خروج عروج إلى الناحية الغربية فنبذوا الطاعة و أعلنوا العصيان فامر عروج الذي كان يتسم بالحزم و الشدة بقتل أبي زيان و أنصاره. يقول أبوراس "ثم زحف إليهم بمن معه و كان شديد البأس فدخل تلمسان عنوة و قتل سبعة من المرشحين للملك من بنى زيان و نحو السنتين من بنى عمهم أولاد عبد الواد وأكثر من ألف من أهل البلد وعاش في تلمسان".

كان الأمير أبو حمو الثالث قد فر إلى وهران يستنجد الإسبان، فتحرك الجيش الإسباني ومعه أبي حمو إلى تلمسان فحاصرها ثم دخلها فاضطر عروج وأتبعه إلى الخروج منها فلاحقه الجيش الإسباني وقتلوه ومن معه بجبالبني زناسن.

يذكر أبوراس رواية أخرى أقرب إلى الأسطورة دون أن ينفي صحتها. و مفادها "لما عثا عروج و أساء السيرة و أفحش في القتل و السبي فثاربه أهل تلمسان ثم أوقع بهم و خرج إلى جبلبني زناسن فأشقق أهل تلمسان على أنفسهم وخافوا من رجوعه إليهم فلجلأوا إلى الشيخ أحمد بن ملوكة - و كان وليا صالحا - و شكوا إليه مانالهم منه و ما تخوفوه، فانقبض الشيخ انقباضاً عظيماً ثم ضرب الأرض بيده و قال "لارجع إلى تلمسان أبداً اعتماداً على الله تعالى". فكان كما قال و قتل عروج التركمانى ومن كان معه من الأعلام و التركمان"<sup>17</sup>.

أجلس الإسبان على عرش تلمسان صنيعهم "أبا حمو" سنة 924 هـ (1518 م) فأبعد هذا الأخير أخيه مسعود عن الحكم فلجأ إلى خير الدين يستصرخه على أن يعترف بالنفوذ العثماني فأمدّه بالمال و الجيش فأخرج أخيه إلى وهران و ملك مسعود تلمسان ... إلى هذا التاريخ تنتهي رواية أبي راس لكن الصراع على تلمسان و تصفيته الحكم الزياني استمرا إلى سنة 962 هـ (1554 م) حيث أعلن البابيلرباي صالح رئيس انضمام تلمسان إلى الدولة الجديدة.

في العهد العثماني ، تراجعت التجارة و تعطلت نسيباً الحياة الاقتصادية و حين هاجر عدد من علمائها مثل الونشريسي و المنداسي و المقري الجزائري لاضطراب الأحوال السياسية، انحصرت الحياة العلمية بتلمسان، دليلنا في ذلك شهادة أبي راس الذي زار تلمسان خلال رحلته إلى المغرب الأقصى "ولما رجعت من فاس، دخلت تلمسان فسألت عن علمائها... أما علماؤها فأولاد بن زاغو من مغراوة و العقابنة من الأندلس و المزارة من عجيبة.. و المقارة من مقرة قرية بالزاب و أولاد الإمام و الشرفاء الأدراسة : أبو عبد و أولاده و الشيخ أحمد بالحاج و بنوه.. و أما الآن فهي كالأمس الدابر و الميت القابر فقد استولى على أكثرها الخراب و ناح على

<sup>17</sup> الرواية مقتبسة من كتاب "نشر الثاني" لا يفصلها أبوراس لكنه يشير إلى دعاء ابن ملوكة. و ابن ملوكة توفي في العقد الرابع من القرن العاشر - ضريحه مزار شهير بتلمسان.

خاوي عروشها الغراب.. فأصبحت خامدة الحسّ ضيقه النفس كأن لم تكن  
بالأمس"<sup>18</sup>

### 3.4. تاهرت الاباضية

كانت تاهرت (أو تيهرت حسب بعض المصادر) عاصمة الأئمة الاباضية من بيت عبد الرحمن بن رستم "من ولد رستم أمير الفرس أيام القادسية"، وهي غير تيارت الحالية التي بناها الفرنسيون على أنقاض المدينة القديمة التي أسست قبل الإسلام.

اختطف عبد الرحمن بن رستم عاصمته "بسفح جبل كزول على رأس تلول منداس شرقي نهر مينا"<sup>19</sup> سنة 144 هـ (761 م) لا سنة 218 هـ كما يذكره أبوراس. وكان قد فرّ من القิروان و التجأ إلى حلفائه من قبيلة لعيبة بالغرب الأوسط عند زحف الجيوش العربية بقيادة ابن الاشعث ثم اتسع عمرانها و تقاطر عليها الناس من كل إقليم بداع التجارة والذهب. تبعد عن المدينة القديمة بنحو خمسة أميال و هي محاذية لتقادمت الشهيرة.

دام ملك الأسرة الرستمية بتاهرت إلى سنة 298 هـ حين أستولى عليها الشيعة بعد مقتل آخر ملوكها اليقطان على يد قائد العبيديين عروبة بن يوسف الكتامي سنة 296 هـ "بعد حروب طوال غلبهم في آخرها و انفرض أمرهم بها".

ولما أراد عروبة الكتامي الرحيل عنها، عقد عليها لأبي حمير دواس بن صولات.. فاتصلت حربه مع لعيبة شيعةبني رستم.. "و كانت لعيبة مستوطنة أرض السرسو و يبلغ عدد خيولها 30 ألفاً أو يزيد على ذلك فاثخن فيهم دواس و فرقهم "بعضهم انتقل إلى جبل مصاب (ميزاب) و بعضهم إلى جبلبني راشد".<sup>20</sup>

بعد سقوط الرستميين، أصبحت تاهرت نقطة عراك بين الشيعة ومغراوة "فتغلب عليها محمد بن الخير أحد ملوك وهران.. و نزلت عساكر بني أمية بها أيام المنصور بن عامر.." غير أنها بقيت بأيدي الشيعة إلى أن أستولى عليها المرابطون ثم الموحدون..

<sup>18</sup> فتح الاله ص 108.

<sup>19</sup> عجائب الأسفار : الجزء الاول

<sup>20</sup> عجائب الأسفار : الجزء الاول

عندئذ، أخذ عمرانها في التراجع وأحرقت النيران أسواقها.

ثم كانت فتنة بني غانية، فكانوا يشنون الغارات عليها و يكررون اقتحامها المرة بعد المرة إلى "أن اختل ساكنها و خلا جوها و أعفى رسمها سنة 685 هـ و ذلك آخر العهد بمعمارتها"<sup>21</sup> لأنهم احتلوا أهلها فتفرقوا في البلاد و ذلك سنة 620 هـ (و ليس 685 هـ كما يذكره أبوراس).

وبجوار تاهرت، تقع "الأجدار" و هي "آثار من بناء الأقدمين : قصور على الجبال الثلاثة المبنية بالحجر المنحوتة، تبدو للناظر على البعد و كأنها أصنمة : أي قبور.. وقد رأى ابن الرقيق كتابة في حجر منها فسّر له "أنا سليمان السردحاوس خالف أهل البلد على الملك فبعثنى الله إليهم وفتح علي و بنيت هذا البناء للذكر به"<sup>22</sup>

#### 4.4. تنس : القرية الاندلسية

"قرية على ساحل البحر الرومي "بناها أندلسيون في القرن الثالث الهجري على مسافة ميلين من البحر. يعود بناؤها حسب البكري إلى سنة 262 هـ (م)، سكنتها أول مرة أهل مرية و مرسية ثم أنضم إليهم بعض الأهالي من سوق إبراهيم "ينسب إلى بنى إبراهيم" و الذي هو غربي العروسي حيث مصب وادي إيسلي في وادي الشلف"

حكمت مدينة تنس أسرة إبراهيم التي تنتمي إلى الأشراف السليمانيين دانت سلطان الأمويين في الأندلس. ثم تناوب على حكمها منذ القرن الرابع الهجري عدّة دول كانت تتنازع حكم المغرب الأوسط و هي العبيديون و مغراوة و صنهاجة والمرابطيون و الموحدون. "أخذها - أول مرة- العبيديون على يد عروبة الكتامي ومصالحة المكناسي.. و لما إنطلق المعز إلى مصر، أستولى عليها بلکین بن زيري من صنهاجة و ملكها كغيرها من أمصار المغرب الأوسط."<sup>23</sup>

<sup>21</sup> عجائب الأسفار : الجزء الأول

<sup>22</sup> عجائب الأسفار : الجزء الأول

<sup>23</sup> عجائب الأسفار : الجزء الأول

ثم ملكها المرابطون فالموحدون إلى أن استخلصها بنو منديل "أمراء مازونة" فانضمت إليهم في القرن السابع الهجري. ولما قام الحكم الزياني بتلمسان، استولى عليها السلطان عثمان الذي "استلح مغراوة و عفا رسمهم و قطع ملتهم..."

و في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري، استقلت عن السلطة المركزية بسبب النزاع بين أفراد الأسرة الزيانية فخضعت لفرع منها بادئ الأمر ثم ملكها شيوخ من أهلها إلى أن استولى عليها عروج في مطلع سنة 1517 م. وفي سياق جهوده لتصفية الحكم الزياني، أعاد خير الدين أحتلالها فعين عليها قائداً و نصب حامية بقصبتها.

خلال القرنين العاشر و الحادي عشر الهجريين، أزدهرت مدينة تنس بفضل خصوبة أحوازها التي كانت تنتج الحبوب و الفواكه فيصدر جزء منها إلى أروبا، غير أن تجاراتها انقطعت في مستهل القرن الثاني عشر فأسرع الخراب إليها.

إلى مدينة تنس، يرجع نسب الحافظ التونسي صاحب الدرو العقيان في شرفبني زيان".

## 5. أبوراس وفتح وهران

في مقدمته لكتاب "الشعر الجماني" يؤاخذ الشيخ المهدى البواعظى أباراس على هزالة مادته التاريخية و يتهمه بالاستطراد في المسائل بعيدة عن الموضوع. أي تاريخ فتح وهران.

يجب أن نكف عن اعتبار تأليف "عجائب الأسفار" ذخيرة أو مستودع للمعطيات التاريخية. إن هذه الرؤية التي تنظر إلى المصادر القديمة نظرة ضيقة، تقلل من قيمتها. لم يكن غرض أبي راس تأليف كتاب أخبار حتى نطالبه بتدوين جميع المعطيات المتعلقة بالفتح بل كان قصده شرح قصيدته "نفيسة الجمان" التيقرأها على مسامع البالى محمد الكبير فدعاه هذا الأخير إلى توضيح معانيها و ألفاظها.. و كان من الطبيعي أن يتناول هذا العمل مباحث متعددة تتصل باللغة و الأدب ثم التاريخ و النسب.

لا يجب أن ننسى أن سعي أبي راس يدخل في سياق مشروعه المتمثل في إحياء فنون الأدب بما فيها التاريخ "إنني في زمن عطلت فيه مشاهد العلم و معاهده و دست مصادره و موارده و قلبت دياره و مراسمه... واستوطن فحولها زوابيا الخمول" لهذا

جاء تأليف "العجائب" أقرب إلى الرحلة حيث تتقطع المباحث الأدبية بالباحث التاريخية. إنه محطة ثقافية ترصد واقع العلوم وفنونها في لحظة زمنية معينة.

ثمة آخر ينفي تهمة التزهيد في المادة التاريخية عن أبي راس. فلم يكن مؤلفنا كاتبا لدى الباي محمد الكبير حتى يكلفه بكتابه وقائع الفتح كما لم يكن ملازما لقصره مثل ابن سحنون حتى تتوفر لديه الوثائق و الرسائل الضرورية لمعالجة أخبار الفتح بالدقة المطلوبة.

يقترح علينا أبوراس نصاً لا يخلو من قيمة علمية إذ يتناول قضايا الحصار والرباطات والمفاوضات والجلاء بطريقة مغایرة، ترکز على التصورات والتمثلات أكثر مما تهتم بالأحداث.

## 1.5. صدى حصار وهران

في نظر أبي راس، لم يكن الحصار الذي فرضه الباي محمد الكبير على وهران حدثا عاديا لأنه ترك صدى عميقا في المخيلة المغاربية. لقد سمع به في إقليم تونس - مدن وبوادي - حين كان راجعاً من رحلة الحج... "لما خرجنا من البحر في شهر شعبان سنة 1205 هـ.. وجدنا خبر محاصرة المنصور بالله سيدي محمد بن عثمان لوهران بسوسة و المنستير و صفاقس.. و وجدنا خبر جهاد وهران عند أهل جربة و أيضا أهل تونس سمعوا..."<sup>24</sup>

وحين استعجل السفر و رام العودة إلى ديار الوطن بسرعة كان "خبر الجهاد قد انتشر في الأیالة القسنطينية : مدنها وأريافها.

يؤكد لنا مؤلفنا أن الجهاد - أي حماية دار الإسلام و تأمينها - واجب الدولة والأمة معًا، بفضله تلتزم السلطة بالجماعة.

لهذا يستعرض جهاد المدن التونسية ضد التحرشات المسيحية منذ بدء الغزو المسيحي للشغور. فالثغر "هو الذي يكون على سيف البحر.. أي ساحله يقع الخوف من العدو فيه.. و الثغر محل رباط" إذا ارتفع الخوف عن الثغر لقوة الإسلام به أو بعده عن العدو زال حكم الرباط..."<sup>25</sup>

<sup>24</sup> عجائب الأسفار : الجزء 2

<sup>25</sup> نفس المصدر.

فسوسة من أعظم مدن الساحل التونسي، استولى عليها طاغية صقلية سنة 543 هـ ثم دخل المهدية و استولى على صفاقس و طرابلس و المنستير وفرض عليها الجزية إلى أن استردها عبد المؤمن سنة 555 هـ.

و المهدية : قاعدة الفاطميين، لم تنج هي كذلك من العداون المسيحي، "فقد غزها الكفار ثلاثة مرات..." ثم تحررت بالجهاد.. وجربة "جزيرة أحاط بها البحر يدخلها الناس على متن المراكب و سكانها على مذهب الخارج" هي كذلك تعرضت للغزو. فقد استولى عليها النصارى سنة 529 هـ ثم حررها أهلها سنة 548 هـ غير أنها بقيت متربدة بين النصارى و المسلمين إلى أن استولى عليها عبد المؤمن" ثم عاد إليها نصارى صقلية في عهد الحفصيين سنة 688 هـ و بقيت بأيديهم إلى أن فتحت سنة 738 هـ. اشتهرت بجهادها ضد النورمان و فرسان مالطة.

ولم يتوقف الجهاد في التغور ضد الجنوبيين و برشلونة و البندقية منذ القرن الثامن الهجري "و بقي مستمرا ضد أمم نصرانية أخرى إلى غاية الآن".<sup>26</sup>

إذن، لا يتحدث أبوراس عن الحصار و أطواره و إن شهد بطوله إذ يخبرنا بأن محمد الكبير أمر به سنة بعد توليه إمارة الغرب الجزائري. فقد كان تحرير وهران والمرسي الكبير شغله الشاغل : انفق من ماله الخاص لشراء المدافع و الذخيرة من جبل طارق و المغرب الأقصى، تكفل بتمويل الطلبة المرابطين بجبل المائدة و قرية إيفري لمضايقة الإسبان بالسلاح و الغذاء و المال، جمع المتطوعة من كل جهة و أعدَ الجيش للقتال وراسل الديي محمد بن عثمان و من بعده حسن باشا بهدف توحيد الموقف و إنجاح المفاوضات عن طريق الضغط على الإسبان في وهران.<sup>27</sup>.

<sup>26</sup> عجائب الأسفار : الجزء الثاني

<sup>27</sup> نعرف أطوار الحصار بفضل المصادر العربية و الإسبانية. كلها تشهد أن التضييق الذي مارسه محمد الكبير على الإسبان المقيمين بوهران كان عاملا حاسما في دفع الحكومة الإسبانية إلى التنازل عن القاعدتين (وهران و المرسي الكبير). إمتد زمن الحصار عشرية كاملة (1780-1791) مع تقاؤت في حدته. في البداية، أقام الرباطات لمنع الإسبان من تجاوز أسوار المدينة في انتظار نتيجة المفاوضات بين الديي و الحكومة الإسبانية. و حين تم التوقيع على الصلح سنة 1786 دون تسوية مسألة وهران، شرع في التضييق على إسبان وهران و أنواعهم المغاطيب.

و في الواقع، بدأ الحصار الحقيقي بعد زلزال الذي أصاب المدينة في أكتوبر 1790، لكنه فشل نتيجة وصول الإمدادات من إسبانيا و خلل في خطة الحصار (ضعف فعالية المقاتلين) غير أن محمد الكبير أعاد تنظيم الرباطات وجد العتاد سنة 1791 فنجح في إحكام الحصار إلى أن قبل الإسبان بالجلاء.

يعتبر أبوراس تجربة الموانئ التونسية في الجهاد عبرة و يعتبر الباي محمد الكبير بطلا من أبطال الجهاد في الإسلام و يقارنه بسيف الدولة. "لقد كان سيف الدولة محبا للجهاد كثير الغزوات و الفتوحات لقد طالت مواقفه مع الكفرة..." و كذلك كان موقف الباي محمد الكبير الذي صرف جهده من أجل إنتهاء الوجود الإسباني بوهان و المرسى الكبير، لا يقل عن أهمية في الجهاد. "فكان إذ ذاك أكثر همته مصروفه لحربها و التضييق عليها وشن الغارات على من يوجد بساحتها نحو إثنى عشر سنة إلى أن حاصرها محاصرة الفتح".

## 2.5. إحياء الرباط

يشيد أبوراس بمؤسسة الرباط و يؤكد أن التجارب التاريخية تؤكّد فعاليتها. فمن العلماء الذين اتخذوا الرباطات في الجهاد و عمروها بالطلبة : الشّيخ أحمد بن ثابث و المجاهد العياشي و العالم محمد بن عبد الكريم المغيلي.

فالشّيخ أحمد بن ثابث رابط بوادي إيغري مع طلبه خلال الفتح الأول "فكانوا أشد الناس مسارعة لاجابة دعاء السلطان بكداش لهذا الجهاد المبارك". فالطلبة "رهبان بالليل، أسود بالنهار" ينشغلون بتلاوة القرآن الكريم بالليل و يراقبون الكفار بالنهار، فإذا خرّجت طائفة منهم إلى الوادي، هاجموها، فتعذر عليهم الخروج إلى مزارعهم و مغارسهم.. فقد حاصروهم محاصرة شديدة "و كانت بينهم وقائع كثيرة استشهد فيها كثير من الطلبة".

أما العلامة ابن عبد الكريم المغيلي " فهو زهّة الغيرة الإسلامية و حركته أوامر المعروف فجاهد في يهود توات أشد الجهاد و شفي منهم الغليل و حقد الأكباد".<sup>28</sup>

فالمجاهد العياشي عالم فقيه أقام الرباط بناحية الغرب و جند لها آلاف من المجاهدين فقاوم الإسبان في طنجة و العرائش و المعمورة و غيرها و أثخن فيهم، فأرهقهم بالخسائر المادية و البشرية خلال العهود الأولى من القرن السابع عشر..

وقد أحبي الباي محمد الكبير الرباط، فقد أشرف بنفسه على تسلیحه و تنظيمه فعين له رئيسا و مساعديه و أرسل رسّله لتجنيد الطلبة و منع التدریس بكلام الايالة إلا في الرباط، و كان يقوم بتمويل الطلبة المرابطين بمال و المؤن

<sup>28</sup> النصوص الواردة مقتبسة النسخ الثلاث و من المصادر المحلية..

ويتدخل في فصل الخصومات التي تحدث بينهم. فاجتمع له نحو 500 طالب كانوا يمنعون الأسبان من الخروج إلى الوادي "فاشتدت شوكتهم على النصاري و عظمت فيهم نكايتهم و تکالبوا على قتالهم".

فقد استشهد عدد هام منهم أثناء الحصار و خلال المعركة، يتقدمهم رئيسهم الشيخ الطاهر بن حواء : قاضي معسکر.. يقول أبوراس عن مآثرهم "وقد ظهر بوهان لهم من الشجاعة أمور غريبة وإقدامات عجيبة و صبر خرج عن المعاد.. فلا هم من العدو يفرون ولا من ص opaque البونبة يتضعضون وهم مع ذلك يهجعون بتلاوة القرآن المجيد، مداومون على ذكره بترتيل و تجويد.. كل ذلك ينم عن فنائهم بوا و وهان كل حين لرجة.. فقد أعدوا اللكفرة أقوى عدّة.."

### 3.5 المفاوضات

يتعرض أبوراس للمفاوضات حول تحرير وهان دون تفصيلها، نفهم ذلك لأنَّه التحق بمحللة الباي بعد الحصار و لم يكن يعلم مثل ابن سحنون بمضمون المراسلات بين الدياي و الادارة الإسبانية<sup>29</sup>.

لا يشرح لنا أطوارها لكنه يعتبرها نتيجة حتمية للحصار. "إن الكفرة أذلهم الله.. لما علموا من المنصور بالله ما هو عليه من كثرة جنوده و شدة حزبه.. فأصبحوا فرائس له يتوقعون و ثبته عليهم، جعلوا للتسلل بالصلح و سائط و ألموا أنفسهم عدّة أمور و شرائط.. بادلين على ذلك المنا اللداء و الرشا حتى أنهم توصلوا بسلطان الجزائر محمد بن عثمان باشا و بعد موته طلبوا في ذلك خليفته حسن دولاتي وألحوا عليه في المراسلة و كذلك توسلوا بجميع أهل دولته.." <sup>30</sup>

بدأت المفاوضات بين الحكومتين الإسبانية و الجزائرية في جوان 1785 و كان الهدف منها إبرام معايدة صلح بين الدولتين و انتهت بعد سنة (جوان 1786) دون تسوية مسألة وهان. تنص اتفاقية الصلح في مادتها العشرين "تبقي مدينة وهان و قاعدة المرسى الكبير على ما كانت عليهما من قبل دون اتصال بالصواحي و أن لا

<sup>29</sup> انظر تفاصيلها في "التقرير الجماني" و "المراسلات الجزائرية - الإسبانية" و مقال : "وهان خلال القرن 18" من مجلة "إنسانيات".

<sup>30</sup> عجائب الأسفار : الجزء الثاني.

يهاجمها داي الجزائر أبداً و لا يقوم باي معسکر بأية غارة عليها إذا لم يتلق أمرأ من الداي.. غير أن النصارى لا يكونون في مأمن في مكان أبعد من رمية المدافع".

في سنة 1787، شن محمد الكبير غارات على القاعدتين ودكهما بالمدافع لأن الحامية الإسبانية كانت تغير على ضاحية وهران من حين لآخر، فتنهب وتسبي وقتل. على إثرها، طلب حاكم وهران هدنة تعهد بموجبها احترام اتفاقية الصلح والامتناع عن مهاجمة الضواحي.. قبل الزلزال الذي ضرب وهران (اكتوبر 1790)، كان الباي محمد الكبير يعمل على تدعيم الرباطات وتوسيعها والاكتثار من السرايا والكمائن خاصة ضدّ فرقة المغاطيس المتعاونين مع الإسبان.

فحال وقوع الزلزال، استغلَ الباي حادثة إطلاق النار على قواته، فاستأنذن الداي محمد بن عثمان في إحكام الحصار على القاعدتين ومناؤشة حاميتهما. "فجاءهم في جند عظيم.. شديد البأس، يحتوى على نحو الخمسين ألفاً، فظهر بذلك من قوته وبأسه وسطوته ما بهر به الكفار وأدهشهم وازدادوا منه خوفاً" و"قد قسم جنده، فترك معظمه معه وأنزل الباقى مع ابنه الانجذب السيد عثمان وبعضه الآخر مع صهره الأجل السيد محمد بن ابراهيم كل منهما في جهة بمحلة عظيمة، مع الأول أهل تلمسان وأحوازها وقبائل من الاعراب كفلينه وغيرهم ومع الثاني أهل مازونة ومستغانم والقلعة وأعراب الشرق.." <sup>31</sup>.

غير أن الإسبان استغلوا هدنة طلبوها لارسال الامدادات إلى القاعدتين (نوفمبر 1790)، فأفشلوا الحصار رغم أن فرقةبني زروال كانت قد تمكنت من الاستيلاء على قلعة "برج العين" "فكانت يوماً 13 من صفر 1205 - قعقت فيه المدفع فزليلت الجبال.." .

عاد محمد الكبير إلى معسکر "ليجمع العدد الذي يقاتل به أمثال أولئك الجهلة.. و لم يزل جاداً في جمع الالات.. و جمع البارود و الرصاص و كور المدفع.. فوجه رسله إلى بلاد الانقليز (جبل طارق) لشراء ذلك،.. و بعث أيضاً إلى ناحية زواوة من أتاهه بكثير من البارود.. و جمع أرباب الصنائع من النجارين و الخراطين و الحدادين و صناع البارود من كل بلد.. كالجزائر و تلمسان

<sup>31</sup>. الثغر الجماني ص 220.

و مستغانم.. و بعث.. إلى ناحية فجيج من يأته بحفرة الالغام، فقدم عليه بمائة منهم وأحقهم بالطلبة..<sup>32</sup>

و حين أكمل إستعداداته، إنتقل إلى وهران لتجديد الحصار فدعا الناس للجهاد "فجاءته الحشود من كل حدب وصوب" وبعث إلى البلدان البعيدة، فأوتى بجميع أعلام أوليائها الأكابر كسيدي عبد الرحمن و السيد أبي مدين و السيد أحمد بن يوسف و السيد محمد بن عودة و مقامات شيخ الحضرة السيد عبد القادر الجيلاني و غيرها ليحضر بها القتال تبركا بها واستعانا بأهلها".

تتحدث المصادر المحلية عن خطة الحرب، و أعداد الجيش (100 فسطاط) و عتاده و الطريق الذي سلكه الباي محمد الكبير من معسرك إلى سيق و من سيق إلى وادي تلبات و منها إلى أغبال ثم تذكر موقع المحلة كالمبرك و موسulan و مسركين و المائدة ووادي الهايجه..

و تجددت العمليات العسكرية حول الأبراج الواقعة في وادي وهران كبرج العيون و البرج الجديد و برج الأمحال. فكان وقعاً شديداً على الحامية الإسبانية. حينئذ طالبت الحكومة الإسبانية من قنصلها بالجزائر مباشرة المفاوضات مع الباي محمد بن عثمان فعرضت عليه التنازل عن وهران و الاحتفاظ بقاعدة المرسي فكان الرفض (15 فبراير 1791) و طلبت منه هدنة مدتها شهراً (20 مارس إلى 20 أفريل) للتفكير فقبل.

انتهت مدة الهدنة دون أن تقرر الحكومة الإسبانية شيئاً فعادت الحرب من جديد (ماي - جوان 1791) و قامت الحكومة الإسبانية بامداد قاعدها بالجيش و السلاح دون جدو "فزاد البلاء على الكفار.. واشتد عليهم ضيق البلاد".

و توفي الباي محمد بن عثمان (جوليا 1791) أثناء الحصار و خلفه حسن باشا، واستمرت المفاوضات و تزامنت مع شدة القتال و المعارك إلى أن انتهت بعقد الصلح. فوقعه الباي حسن باشا يوم 12 سبتمبر 1791 و صادق عليه الملك الإسباني شارل الرابع يوم 12 ديسمبر 1791. تنص المعاهدة على:

<sup>32</sup> المصدر نفسه : ص 247 - 248

جلاء الاسبان من القاعدين : وهران و المرسى الكبير في مدة أقصاها 4 أشهر بعد التوقيع.

حق الاسبان في إقامة شركة تجارية بوهران مقابل دفع رسوم.

يقول أبوراس " و طلبوا أن يعقدوا بيننا وبينهم الصلح في الحال علىأخذ البلد و اعطاء الآلافات من المال و كتبوا بذلك للمنصور بالله فوافق على ما أحبه أكثر المسلمين وارتضاه.. و تحمل النصارى من المغارم أثقالها.. حينئذ و ضاعت الحرب أوزارها.." .

#### 4.5. الباي محمد الكبير يدخل وهران

تصف لنا المصادر دخول الباي إلى وهران في يوم مشهود (5 رجب سنة 1206 حسب أبي راس) و كان من قبل ، "ينظر إلى الاسبان وهم يرحلون" من ربوة بقرية كريشتل الساحلية<sup>33</sup> .

و " جاء الخبر بذبابهم جمِيعاً .. فبعث بالأعلام الإسلامية فنصبت على شواهد الأبراج " ثم أمر جنود المدفعية بتعمير الأبراج ، عندئذ انتقل الجيش بقيادة الباي ، يتقدمه طائفة من العلماء يقرأون البردة و يحملون على ظهر بغلة كتاب البخاري.

وعند استقراره بالبرج الأحمر، جاءته الخاصة للتنهئة، ثم كتب الرسائل إلى الأمراء و الملوك و بعث مفاتيح المدينة إلى الباي حسن باشا " و قد حل بها الإسلام أول الربيع و هو الرابع من رجب سنة ست و مائتين و ألف " و في اليوم الثاني ، زار محمد الكبير المدينة و تفقد أبراجها " فلم يكونوا قد هدموا .. إلا مواضع لا إغاثة لسلام فيها .. و أما دور السكني فكانت قد تهدمت بالزلزلة .. غير أنهم جعلوا خارجها بين الأبراج بيوتاً من اللوح رائعة الشكل ، بديعة الوضع .. " و في اليوم الثالث أذن للناس بتعمير المدينة ، فكان ابنه يشرف على توزيع المنازل عليهم و في اليوم الرابع ، ركب البحر لتتفقد برج المرسي ثم رجع واشتعلت بالبناء و التعمير .. على إثر الفتح ، كرمَه الباي حسن باشا وألبسه " الجلنڭ " أي الرشبة الذهبية التي تتوضع على العمامة .

<sup>33</sup> كان يراقب عملية الجلاء بواسطة منظار يسميه ابن سحنون "المراة"

<sup>34</sup> الثغر : ص 459 : كان مقررا وفق معاهدة الصلح أن يدمر الاسبان التحصينات التي بناها بعد سنة 1732.

هذه المعلومات لا نجدها في العجائب، مايهم أبوراس هو عرض معطيات تتصل بالخيال الإسلامي في الأقليم. يعقد مؤلفنا مقارنة بين معاهدة الجلاء وصلح الحديبية ويعتبر تحرير وهران تعويضاً لضياع الاندلس. يعني تحرير وهران عودتها إلى الإسلام : ديانة التوحيد، فقد تطهرت من أوثان التثليث " فلا يسمع بها ناقوس ولا يرى صنم ولا كنيسة ولا راهب"<sup>35</sup> فقد غير الإسلام معالم النصاري "فلا نهي لهم ولا أمر.. فقد دفن الكفر بها.." .

أما الباي محمد الكبير، فيعتبره "نموذج الأمير" الذي تحلم به الجماعة الإسلامية. يتميز بالحزم لأنه قاوم الفتنة فأخضع القبائل المنشقة عن السلطة ومهّد البلاد، فحقق وحدة الدولة والمجتمع... وقاد من أجل حماية دار الإسلام وفرض الأمن والأمان "حتى أصبحت الشاه ترعى مع الذئب" فسياسته قائمة على العدل، يحفظ حقوق العامة دون التغريب في حقوق الخاصة. يرعى شؤون العلم والعلماء، فبني المساجد والمدارس وجلب الكتب وأجرى الرواتب على الطلبة وشيوخهم.. عمر وهران فأحبّي تجارتها وأنعش الحرف والصناعات "فعظمت على سائر أمصار المغرب"

إن جلّ شعر أبي راس في مدح هذا الباي، يقارنه بالملوك الكبار، رغم أنه باي يخضع لسلطة مركزية وياتمر بها، يبالغ في ذكر ما ثرّه وفي وصفها..

فاق ملوك الأرض طرًا كأنهم .. نجوم وهو بينهم البدر طالع  
فلم يبلغوا في الملك مثل محمد .. ولا بذلوا كبذلـه المتواسع  
كأنه شمس و الملوك كواكب .. إذا ظهرت لم يبد منها ساطع

قد نخطئ إذا اعتبرنا أباراس شاعراً من شعراء البلاط، يمدح الامراء من أجل الكسب، ما يحرك قريحته الشعرية عاطفته الإسلامية الجياشة و حلمه بعودة عظمة الإسلام في ظل واقع تميز بتکالب الدول المسيحية وضعف الانظمة القائمة...

يحتوى الجزء الثاني من عجائب الأسفار على مباحث تاريخية كثيرة تفييد بلا شك الباحثين غير أننا اقتصرنا على تقديم أهمها و تركنا المباحث الأدبية لذوي الاختصاص..